الماء في القرآن الكريم بين الاسم والوصف والدلالة – دراسة موضوعية تحليلية

Water in the Noble Qur'an Between Noun, Description, and Signification – An Analytical Thematic Study

عاطف محمد محمود الخولي

جامعة الجوف بالمملكة العربية السعودية – وجامعة الأزهر الشريف.

atefalkholi79@gmail.com

السيد مبارك أبوزيد عبد المنعم إبراهيم

جامعة الجوف – المملكة العربية السعودية

emabozead@ju.edu.sa

تاريخ الاستلام:2026/09/09 تاريخ القبول:2026/11/01 تاريخ النشر: 2026/11/05

الملخص: يتناول البحث موضوع الماء في القرآن الكريم من خلال ألفاظه وأوصافه وسياقاته ودلالاته المتنوعة. ويهدف إلى جمع الآيات المتعلقة بالماء، وتصنيف ألفاظه وأوصافه، وتحليلها لغويًا، وبيانيًا، وعقديًا، وتربويًا. واعتمد البحث المنهج الاستقرائي والتحليلي والنقدي، بالرجوع إلى كتب التفسير واللغة والمصادر المتخصصة. ويؤكد البحث أهمية التمييز بين أوصاف الماء وأنواعه، وبين ما يرتبط به من سياقات وآثار ومآلات. وتبين أن الماء ورد في القرآن في سياقات متعددة، منها الخلق والإنبات والرزق والطهارة، والبعث، والعذاب، والنعيم، وخلص البحث إلى أن تنوع ألفاظ الماء لا يدل بالضرورة على تعدد أنواعه المادية، بل يشمل الأوصاف، والسياقات، والدلالات المجازية والتمثيلية.

الكلمات المفتاحية: الماء، القرآن الكريم، أنواع الماء، أوصاف الماء، الدلالة القرآنية.

Abstract: The study explores how the Qur'an presents water through its terms, descriptions, contexts, and meanings. It collects all verses related to water and analyzes them linguistically, rhetorically, doctrinally, and educationally using inductive and analytical methods. The research shows that water appears in various Qur'anic contexts—such as creation, sustenance, purification, resurrection, punishment, and reward—and concludes that the diversity of water-related expressions reflects differences in meaning and context rather than multiple physical types of water

Keywords: Water, Qur'an, types of water, descriptions of water, Qur'anic semantics.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، خالق الخلق أجمعين، ومنزل الماء من السماء، وجاعله سببًا للحياة والنماء، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الماء من أعظم النعم التي امتن الله تعالى بها على خلقه، وأظهر الآيات الدالة على قدرته وحكمته ورحمته؛ إذ لا يكاد يخلو جانب من جوانب الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية من أثره. وقد أكثر القرآن الكريم من ذكر الماء، وربط نزوله وإنبات الأرض به بآيات القدرة والتوحيد والشكر والبعث، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} الأنبياء/30، وقال سبحانه: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ} المؤمنون/ 18.

وقد لفت القرآن النظر إلى الماء في صور متعددة؛ فتارةً يذكره مجردًا، وتارة يصفه بالطهارة، أو العذوبة، أو الملوحة، أو الكثرة، أو الجريان، وتارة يضيفه إلى مكان، وتارة يذكره في سياق النعيم الأخروي، أو العذاب، كما يجعل منه وسيلةً للاعتبار والاستدلال على قدرة الله تعالى.

ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث؛ لاستقراء تلك الصور وتصنيفها، وبيان ما بينها من فروق دلالية، مع الوقوف على إشارات المفسرين إليها.

وقد ورد ذكر الماء في القرآن الكريم في صور متعددة، تنوعت بين الأسماء، والأوصاف، والإضافات، والدلالات السياقية.

وقد أمكن استقراء ثلاثة وعشرين موضعًا وصورةً من صور الماء في القرآن الكريم، باعتبار تنوع أسمائه وأوصافه وإضافاته ودلالاته السياقية.

غير أن البحث العلمي يقتضي ألا يكتفي الباحث بتكرار هذا التصنيف، وإنما يسأل :هل جميع هذه الألفاظ تدل فعلًا على أنواع مستقلة من الماء؟ وهل يصح إدخال السراب، وماء مدين، وماء أهل النار، وغير ذلك في قائمة واحدة بوصفها «أنواعًا»؟ أم أن بعضها أوصاف، وبعضها مواضع، وبعضها سياقات أو صور تمثيلية؟، ومن هنا جاءت هذه الدراسة محاولةً لإعادة النظر في الموضوع من منظور قرآني، ولغوي، وتفسيري، مع المحافظة على ما في الفكرة من قيمة، وتنقيتها مما يحتاج إلى تحرير.

وقد راعيت في بيان وذكر هذه الأسماء، والصفات، والدلالات الخاصة بالماء والواردة في آيات القرآن الكريم: الترتيب المصحفي حسب ورود السور والآيات.

أهمية البحث:

تبرز أهمية هذا الموضوع في أمور، منها:

1- كثرة ورود الماء في القرآن الكريم وتنوع سياقاته.
2- ارتباط ذكر الماء بقضايا عقدية كالتوحيد، والقدرة، والبعث.
3- اقتران الماء في مواضع كثيرة بنعم الله تعالى التي تستوجب الشكر.
4- إظهار كثير من الدلالات التربوية، والإيمانية، والعقدية من خلال حديث القرآن الكريم عن الماء.
5- الحاجة إلى تقويم بعض التصنيفات المتداولة في هذا الباب، ولا سيما دعوى حصر أنواع الماء في ثلاثة وعشرين نوعًا.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

1- بيان مكانة الماء في الخطاب القرآني.
2- تحرير مفهوم «أنواع الماء" وتمييزه عن الأوصاف والسياقات.
3- تقويم التصنيف الشائع الذي يجعلها ثلاثة وعشرين نوعًا.
4- إبراز الدلالات العقدية والتربوية والبيانية المتعلقة بالماء.
5- بيان أثر الماء في الاستدلال على قدرة الله تعالى وتوحيده والبعث.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في شيوع القول بأن القرآن الكريم ذكر ثلاثة وعشرين نوعًا من الماء، مع عدم التمييز في بعض الكتابات بين أنواع الماء، وأوصافه، ومصادره، وسياقاته، وآثاره، وما جاء على سبيل التشبيه أو التمثيل، ومن ثم يسعى البحث إلى الإجابة عن سؤال رئيس، هو: ما حقيقة تنوع الألفاظ والأوصاف المتعلقة بالماء في القرآن الكريم، وما دلالاتها، وهل يصح عدُّها أنواعًا مستقلة للماء؟

منهج البحث:

اعتمد البحث على المناهج الآتية:

1- المنهج الاستقرائي: وذلك بجمع الآيات التي تناولت الماء، وألفاظه، وأوصافه.
2- المنهج التحليلي: من خلال دراسة الألفاظ في سياقاتها القرآنية، والاستفادة من كتب اللغة والتفسير، لمعرفة وتحليل معاني الألفاظ ودلالاتها، مع الاقتصار على ما يثبت بالنص، أو بالتفسير المعتبر.
3- المنهج النقدي: وذلك في تقويم التصنيفات الشائعة لأنواع الماء.

خطة البحث والدراسة:

اقتضت طبيعة هذا البحث أن أقسمه إلى ستة مباحث، وخاتمة.

المبحث الأول: تحرير دعوى: بأن الماء الوارد في القرآن الكريم عبارة عن ثلاثة وعشرين نوعًا:

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: منشأ هذا التصنيف:

انتشر في وسائل التواصل الاجتماعي، وعدد من الكتابات تصنيف الماء إلى ثلاثة وعشرين نوعا، ومن ذلك:

الماء المغيض	ماء الصديد	ماء المهل	ماء الأرض
الماء الطهور	ماء الشرب	الماء الأجاج	الماء المهين
الماء غير الآسن	الماء الحميم	الماء المبارك	الماء المنهمر
الماء المسكوب	الماء الغور	الماء المعين	الماء الغدق
الماء الدافق	الماء الفرات	ماء السراب	ماء مدين
ماء الأنهار والينابيع	الماء الثجاج	ماء السلسبيل	

المطلب الثاني: النقد العلمي لهذا التصنيف:

هذا التصنيف يحتاج إلى إعادة تحرير؛ وذلك للأسباب الآتية:

أولًا: اختلاف طبيعة المصطلحات:

ف «الطهور" وصف، و«الغدق» وصف للكثرة، و«الدافق» وصف لحال الخروج، و«الفرات" وصف للعذوبة، و«الأجاج" وصف للملوحة.

ثانيًا: إدخال الأماكن في الأنواع:

مثل «ماء مدين»، الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ القصص/23، فـ"مدين" اسم مكان، وليس نوعًا من الماء.

ثالثًا: إدخال السراب: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ النور/ 39، فالسراب **ليس ماءً حقيقيًا**، وإنما شبهت به صورة يراها الظمآن ماءً، ثم فإن عده نوعًا من الماء من الناحية العلمية أو اللغوية غير دقيق.

رابعا: اختلاف السياقات:

بعض الأوصاف يتعلق بماء الدنيا، وبعضها بماء الجنة، وبعضها بماء العذاب في الآخرة، وبعضها بماء الإنسان، ومنهج البحث العلمي يقتضي الفصل بين هذه السياقات.

المبحث الثاني: المياه المرتبطة بنزول المطرودورة الماء:

وهي متمثلة فيما يلي:

أولا: ماء الشرب:

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ} النحل/ 10.

والمراد بالماء في الآية ماء المطر. [1]

والماء هو الرابط الذي يربط السماء بالأرض، فمن السماء ينزل المطر إلى الأرض، وقد بين سبحانه وتعالى نعمتين عظيمتين في ماء المطر:

الأولى: أن منه يكون الشرب، وري الأبدان، وهذا ما عبر عنه سبحانه بقوله: {لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ} أي: أن هذا الماء النازل من السماء، تشربونه وتدفعون به العطش، وقد عبر الله تعالى بقوله تعالى: (لكم منه شراب) ليتضمن شربه سقيا، وريا، ويتضمن أيضا: الماء المحلى بأي بمادة من المواد، وليتضمن ثالثا الشراب الذي يكون من النبات، والكروم غير المتخمر، فإن الماء أصل ذلك كله.

الثانية: أن من هذا الماء النازل من السماء {شَجَر فِيهِ تُسِيمُونَ}، وقد امتن الله تعالى به على عباده من جهتين متلازمتين: فمنه شرابهم، ومنه حياة النبات الذي تنتفع به الأنعام وغيرها.

وهذه الآية من أوضح الآيات في بيان أن الماء أصل في استمرار الحياة ومصدر من مصادر الرزق؛ إذ ينتفع الإنسان بالماء مباشرةً بالشرب، وينتفع به بطريق غير مباشر من خلال النبات الذي يقوم عليه جانب كبير من غذاء الإنسان والحيوان.

ومن ثم فإن قوله تعالى: {لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ} ليس مجرد إخبار عن وجود الماء، بل تذكير بنعمة ظاهرة ملازمة لحياة الإنسان. يقول الإمام الرازي – رحمه الله -:

"وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَاءَ الْمُنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ هُوَ الْمَطَرُ، وَالْحَاصِلُ: أَنَّ مَاءَ الْمَطَرِ قِسْمَانِ:

أَحَدُهُمَا: هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى شَرَابًا لَنَا وَلِكُلِّ حَيٍّ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: {لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ} وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى أَنَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ جَلِيلَةٌ فَقَالَ: {وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} الْأَنْبِيَاءِ/ 30.

فَإِنْ قِيلَ: أَفَتَقُولُونَ إِنَّ شُرْبَ الْخَلْقِ لَيْسَ إِلَّا مِنَ الْمَطَرِ، أَوْ تَقُولُونَ قَدْ يَكُونُ مِنْهُ وَقَدْ يَكُونُ مِنْ غَيْرِهِ، وَهُوَ الْمَاءُ الْمَوْجُودُ فِي قَعْرِ الْأَرْضِ؟

أَجَابَ الْقَاضِي: بِأَنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ أَنَّ الْمَطَرَ شَرَابُنَا، وَلَمْ يَنْفِ أَنْ نَشْرَبَ مِنْ غَيْرِهِ.

وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: ظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى الْحَصْرِ – أي: أننا لا نشرب إلا من ماء المطر فقط دون غيره -، لِأَنَّ قَوْلَهُ: {لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ} يُفِيدُ الْحَصْرَ لِأَنَّ مَعْنَاهُ مِنْهُ لَا مِنْ غَيْرِهِ.

إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ: لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْمَاءُ الْعَذْبُ تَحْتَ الْأَرْضِ مِنْ جُمْلَةِ مَاءِ الْمَطَرِ يَسْكُنُ هُنَاكَ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ: {وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ} الْمُؤْمِنُونَ/ 18، وَلَا يَمْتَنِعُ أَيْضًا فِي غَيْرِ الْعَذْبِ وَهُوَ الْبَحْرُ أَنْ يَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ مَاءِ الْمَطَرِ.

الْقِسْمُ الثَّانِي مِنَ الْمِيَاهِ النَّازِلَةِ مِنَ السَّمَاءِ: مَا يَجْعَلُهُ اللَّهُ سَبَبًا لِتَكْوِينِ النَّبَاتِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: {وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ} إِلَى آخِرِ الْآيَةِ"[2]

ثانيا: ماء الأرض:

الذي خُلِق مع خلق الأرض، ويظل في دوره ثابتا حتى قيام الساعة، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ} المؤمنون/18.

وهذه الآية تعد من نعم الله تعالى على خلقه ومما امتن به عليهم، ومن أعظم هذه المنن: الماء الذي هو حياة الأبدان، ونماء الحيوان. "قال العلماء الماء المنزل من السماء على قسمين:

قسم عارض ممطر يغيث في وقت الجدب، ولا ينزل بانتظام كالمطر الذي ينزل بالاستسقاء، كما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يستسقي، ومن بعده أهل الصلاح والتقوى.

هذا الذي ذكر الله سبحانه وتعالى، والمراد به المطر، يغيث في وقت الجدب، ولا ينزل بانتظام كالمطر الذي ينزل بالاستسقاء، وأخبر بأنه استودعه في الأرض، وجعله فيها مختزنا لسقي الناس يجدونه عند الحاجة إليه، وهو ماء الأنهار، والعيون، وما يستخرج من الآبار.

وقسم يجري في أنهار ويسلك ينابيع الأرض في عيون، وهذا يُسكنه الأرض، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا - أَنْزَلَ اللَّه تَعَالَى مِنَ الْجَنَّةِ خَمْسَةَ أَنْهَارٍ سَيْحُونَ، وَجَيْحُونَ، وَدِجْلَةَ، وَالْفُرَاتَ وَالنِّيلَ، وهذا هو المراد من الماء المذكور في الآية، كما ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين، فقالوا: إنها تنزل على الجبال، وفي البحيرات التي تمدها، وهذا يبدو كأنه الساكن في الأرض، وإن كانت في سير دائم من منبعها إلى مصبها، وهذه الأنهار، وأشباهها توجد الخصب، والنماء بإذن اللَّه تعالى، ومن الناس مَن اعتقد أنها دائمة لا تغيض، ولا تقل، ولذا قال تعالى: {وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ} أي: إنا على إذهابه لقادرون.

والصواب: أن هذا كله داخل تحت الماء الذي أنزله الله تعالى.

وقال مجاهد: ليس في الأرض ماء إلا وهو من السماء، وهذا ليس على إطلاقه، ويمكن أن يقيد هذا بالعذب، وإلا فالأجاج ثابت في الأرض مع القحط والعذب يقل مع القحط، وأيضا فالأحاديث تقتضي الماء الذي كان قبل خلق السماوات والأرض، ولا محالة أن الله قد جعل في الأرض ماء وأنزل من السماء ماء "[3].

وهذا من المواضع المهمة في دراسة الماء قرآنيًا؛ إذ يلفت القرآن الكريم النظر إلى انتقال الماء من السماء إلى الأرض واستقراره فيها، ثم إمكان ذهابه وعدم القدرة على استرداده بغير مشيئة الله تعالى، والتعبير القرآني: {وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ} يحمل تنبيهًا بالغًا إلى أن دوام النعمة ليس أمرًا حتميًا، وإنما هو فضل من الله تعالى.

ثالثا: الماء الطهور:

وهو العذب الطيب، والمراد به: ماء المطر، فهو طاهر في نفسه مطهر لغيره، كما ذهب إلى ذلك جمهور العلماء، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ مَاءً طَهُوراً} الفرقان/48.

فأطهر الماء هو ماء المطر، والسبب في ذلك: خلوه من الأنجاس الحسية والقاذورات، ووصفه ب (طهورا) يشير إلى ذلك.

هذا الماء في الشريعة الإسلامية يكون سببا في طهارة الإنسان الحسية، وذلك بإزالة الأنجاس عنه، وسببا أيضا في طهارته المعنوية، وذلك بالاغتسال، والوضوء، وانتعاش الجسم بالاستحمام، والاستراحة من وعثاء، وعناء الأعمال، وكل هذه نِعَم تعَمُّ المؤمن والكافر.

"وقد روي عَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ، وَطُرُقُ الْبَصْرَةِ قَذِرَةٌ، فَصَلَّى فَقُلْتُ لَهُ، فَقَالَ: {وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ مَاءً طَهُوراً} قَالَ: طَهَّرَهُ مَاءُ السَّمَاءِ.

وروي عَنْ سَعِيدِ بن المسيب في هذه الآية قال: أنزله الله طهورا لَا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ".

وذلك لإبرازِ كمالِ العنايةِ بالإنزال لأنَّه نتيجةُ ما ذُكر من إرسالِ الرِّياحِ، أي: أنزلنا بعظمتِنا بما رتَّبنا من إرسالِ الرِّياح من جهةِ الفوقِ ماءً بليغاً في الطَّهارةِ، وما قيل إنَّه ما يكون طاهراً في نفسه ومطهراً لغيرِهِ فهو شرح لبلاغته في الطَّهارةِ، كما ينبُىء عنه قوله تعالى {وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ} الأنفال/11.

ووصف الماءِ بالطهور: إشعارٌ بتمام النِّعمةِ فيه، وتتميم للنِّعمةِ فيما بعده، فإنَّ الماءَ الطَّهورَ أهْنَأُ، وأنفعُ ممَّا خالطه ما يزيل طهوريَّتَه، وتنبيه على أنَّ ظواهرهم لما كانت ممَّا ينبغي أن يُطَهِّرُوها فبواطنهم أحقُّ بذلك وأولى"[4]. والطهور في الآية يدل على طهارة الماء وصلاحيته للتطهير، وهو من الألفاظ التي بحثها المفسرون والفقهاء بحثًا لغويًا وشرعيًا.

رابعا: ماء الأنهارواليناببيع:

وهو ماء المطر الذي يسقط من السحاب فيجري في مسالك، وعيون معروفة، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ} الزمر/21.

فالآية الكريمة تنتقل بالماء في مشهد بديع من السماء إلى الأرض، ثم إلى مسالكها وعيونها، ثم إلى النبات الذي ينشأ به.

وهذا التسلسل القرآني يلفت النظر إلى ترابط مظاهر القدرة الإلهية: نزول الماء، واستقراره في الأرض، وخروجه منها، ثم أثره في النبات.

والغاية ليست مجرد عرض ظاهرة كونية، وإنما دعوة أولي الألباب إلى الاعتبار؛ إذ ينتهي النبات بعد نضجه إلى الذبول والاصفرار والحطام، فيكون ذلك مثالًا على سرعة تحول أحوال الدنيا وفنائها.

والآية الكريمة غير منفصلة عن سابقاتها – وهي قوله تعالى: { لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ} الزمر/20 - وأن الآية التي معنا وردت بمثابة الاستطراد، والتعقيب عليها كي تنبه الناس إلى العبرة من نزول المطر من السماء، وتسربه إلى باطن

الأرض، ثم خروجه منها ينابيع، وعيون، وما يُنبت به من زرع مختلف الألوان، ثم يتم نضجه وجفافه، ثم يصفر ثم يصبح حطاما، وفي كل هذا ذكرى لذوي العقول.

إِنَّ مَنْ شَاهَدَ هَذِهِ الْأَحْوَالَ فِي النَّبَاتِ عَلِمَ أَنَّ أَحْوَالَ الْحَيَوَانِ وَالْإِنْسَانِ، كَذَلِكَ وَأَنَّهُ وَإِنْ طَالَ عُمُرُهُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الِانْتِهَاءِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ مُصْفَرَّ اللَّوْنِ مُنْحَطِمَ الْأَعْضَاءِ وَالْأَجْزَاءِ، ثُمَّ تَكُونُ عَاقِبَتُهُ الْمَوْتَ.

فَإِذَا كَانَتْ مُشَاهَدَةُ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فِي النَّبَاتِ تُذَكِّرُهُ حُصُولَ مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فِي نَفْسِهِ وَفِي حَيَاتِهِ، فَحِينَئِذٍ تَعْظُمُ نَفْرَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَطَيِّبَاتِهَا.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ – في قوله تعالى: {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ} الزمر/20 - ذَكَرَ مَا يُقَوِّي الرَّغْبَةَ فِي الْآخِرَةِ، وَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يُقَوِّي النَّفْرَةَ عَنِ الدُّنْيَا، فَشَرْحُ صِفَاتِ الْقِيَامَةِ يُقَوِّي الرَّغْبَةَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَشَرْحُ صِفَاتِ الدُّنْيَا يُقَوِّي النَّفْرَةَ عَنِ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا قَدَّمَ التَّرْغِيبَ فِي الْآخِرَةِ عَلَى التَّنْفِيرِ عَنِ الدُّنْيَا، لِأَنَّ التَّرْغِيبَ فِي الْآخِرَةِ مَقْصُودٌ بِالذَّاتِ، وَالتَّنْفِيرَ عَنِ الدُّنْيَا مَقْصُودٌ بِالْعَرَضِ، وَالْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ مُقَدَّمٌ عَلَى الْمَقْصُودِ بِالْعَرَضِ.

وقد قال بعض المفسرين: إن في الآية الكريمة تنبيها على أنه لا بد أن يكون للكون صانع مدبر، ودليلا على قدرة الله على بعث الناس، وإعادتهم ثانية.

وقال بعضهم: إن فيها تمثيلا لمظاهر الحياة للتحذير من الاغترار بها فكل ما يبدو فيها بهيجا عاقبته إلى الجفاف والدمار.

وكلا القولين وجيه، مع التنبيه إلى أن ما في القول الثاني من قصد التحذير من الاغترار بالدنيا لا يعني الدعوة إلى نفض اليد منها، فذلك ما نفاه القرآن في مواضع عديدة، بل واستنكره في آية سورة الأعراف هذه: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} الأعراف/32، وإنما يعني التحذير من الاستغراق فيها استغراقا مسرفا ينسي المرء واجبه نحو الله والناس والمصير الأخروي الذي سوف يلقى فيه جزاء ما قدم بين يديه من خير وشر"[5]

خامسا: الماء المبارك:

الذي يحيي الأرض، وينبت الزرع، وينشر الخيـر، صاحب المنافع الكثيرة، والمراد به: ماء المطر، الذي فيه البركة والحياة لكل شيء، قال تعالى: {وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ مَاءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ} ق/9.

وهذا نوع آخر من الأنواع التي تتطلب التدبر، والتفكّر.

فإذا كان هؤلاء الكافرون، قد أَعْيِيتْ، وكَلّتْ أبصارهم عن أن تقع على موقع العظة، والعبرة من السماء، وما فيها من عجائب، وعميت أيضا عن الأرض وما فيها من آيات، وعبر، إذا كان هذا شأنهم فيما هو موجود

في السماء والأرض، فهذا معرض جديد من معارض النظر، ليس في السماء، ولا في الأرض فقط، وإنما هو فيما بين السماء والأرض، وفى مستوى النظر، لكل ذي نظر، فهو لا يَتكلف لهذا النظر، فلا يمد بصره إلى السماء، ولا يلقيه على الأرض، بل حسبه أن يفتح بصره مجرد فتح، فيرى هذا المطر المتدفق من السماء إلى الأرض... هذا الماء.. ما شأنه؟ ومن أين جاء؟ ولم جاء؟

إنه لم يكن عن عبث، ولم يقع مصادفة، وإنما وقع ليعيد ويبعث الحياة في الأرض الهامدة، ويُخْرِج من بطنها هذه الجنات، والزروع التي يحيا بها الإنسان والحيوان.

"وقد سماه الله تعالى: مباركا لأنه يستعمل في أمر الدِّين والدنيا، ويطهر به كل شيء ويُزَين، وبه حياة كل شيء ونماؤه، والمبارك كل خير يكون على النماء، والزيادة في كل وقت.

وفى وصف الماء بأنه مبارك، إشارة إلى ما يحمل هذا الماء الذي كثيرا ما تستخف به العيون، ولا تتملّاه الأبصار، من خيرات ونعم، ولا يحصيها المحصون، ولا يدرك أسرارها إلا أولو الأبصار من عباد الله"[6].

فالله تعالى قد وصف الماء بأنه «مبارك» لما يترتب عليه من آثار عظيمة في الحياة والنبات والرزق.

فالبركة هنا تتجلى في كثرة المنافع المترتبة على الماء؛ إذ ينزل الماء، فتحيا به الأرض، وتنبت الجنات، ويخرج الحب الذي تقوم به حياة الإنسان والحيوان.

وهذا من المواضع التي يظهر فيها ارتباط الماء بمفهوم البركة الإلهية، وليس مجرد وجود المادة المائية.

سادسا: الماء المنهمر:

المنصب المتدفق بغزارة، ولفترات طويلة من السماء فيهلك الزرع والحرث، قال تعالى: {فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ} القمر/11، والسياق في قصة سيدنا نوح - عليه السلام -، حيث اجتمع ماء السماء وماء الأرض في حادثة الطوفان.

وفيه مبالغة وتمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها، ولذلك لم يقل: (بماء مطر) لأنّه خارجٌ عن تلك العادة، واستمرّ ذلك أربعين يوما – كما تذكر بعض الروايات.

"قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ {فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ} كَثِيرٍ لَمْ تُمْطِرِ السَّمَاءُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ولا بعده إلا مِنَ السَّحَابِ، فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بِالْمَاءِ مِنْ غَيْرِ سَحَابٍ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَالْتَقَى الْمَاءَانِ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ"[7].

وقد ذكر القرطبي في تفسير «منهمر» أنه كثير، وقيل: منصب متدفق، وذكر ابن كثير عن السلف تفسيره بالكثرة. [8]

سابعا: الماء الْغَدَق:

الكثير الوفير، قال تعالى: {وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ مَاءً غَدَقاً} الجن/16، وفي ذلك تقريرا وبيانا ربانيا بأن الناس لو اتّبعوا الطريق القويم واستقاموا عليه لأسقاهم الله تعالى ماء غدقا يكثر

به رزقهم اختبارا لشكرهم واعترافهم بفضل الله تعالى، أما الذين يستكبرون، ويعرضون عن ذكر ربهم وشكره يسلّط الله عليهم البلاء الشديد، ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

"والْغَدَقُ بِفَتْحِ الدَّالِ وَكَسْرِهَا: الْمَاءُ الْكَثِيرُ، وفي الغدق وجهان:

أحدهما: أنه العذب المعين، قاله: ابن عباس

الثاني: أنه الواسع الكثير، قاله: مجاهد

- وَفِي الْمُرَادِ به فِي هَذِهِ الْآيَةِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ الْغَيْثُ وَالْمَطَرُ، قال مقاتل: نزلت هذه الآية بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى الْجَنَّةِ، كَمَا قَالَ: {جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ} البقرة/ 25.

وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ الْمَنَافِعُ وَالْخَيْرَاتُ، جُعِلَ الْمَاءُ كِنَايَةً عَنْهَا، لِأَنَّ الْمَاءَ أَصْلُ الْخَيْرَاتِ كُلِّهَا فِي الدُّنْيَا.

وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ: سِعَةُ الرِّزْقِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ} المائدة/ 66، وكقوله تَعَالَى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ} الْأَعْرَافِ/96.

وإنما عبر عن سعة الرزق بالماء الغدق: لأنه أصل المعاش وسعة الرزق، ولعزة وجوده بين العرب، أو لأن غيره يعلم منه بالأولى". (9)

وعليه، فلا ينبغي حصر معنى الآية في المطر وحده، لأن دلالة السياق أوسع، وقد حمل بعض، وهذا من المواضع التي ينبغي فيها التمييز بين المعنى اللغوي المباشر وبين الدلالة السياقية التي يذكرها المفسرون.

ثامنا: الماء الثَّجَاج:

وهو الماء السيال المنصب بعضه بعضا، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ مَاءً ثَجَّاجاً} النبأ/14، والمراد: نزول وتتابع ماء المطر حتى يكثر، ويعم النفع به، وفي هذا كله: تذكير بنعم الله تعالى على خلقه.

وهذا ما نطقت بع عبارة الإمام الماتريدي – رحمه الله – عند تفسيره لهذه الآية الكريمة، فنجده يقول: "والثجاج: القطر المتتابع بعضه على إثر بعض، والثج: الصب، والإراقة.

ثم في إنزال الماء من المعصرات تذكير النعم، والقدرة، والحكمة، وكل وجه من هذه الأوجه الثلاثة يوجب القول بالبعث.

= فأما وجه تذكير النعم، فهو أن القطر ينزل من السماء متتابعا، ثم اللَّه تعالى بلطفه يمنع اتصال بعض ببعض والتصاقه، ويرسل كل قطرة إلى الأرض بحيالها، وينزل بعضها على أثر بعض؛ لينتفع بها، ولو التصق بعضها ببعض واتصل، لم يقم لها شيء؛ فكانت تصير سببا للتعذيب والإهلاك، فبفضله ورحمته أنزلها متتابعة؛ لينتفع بها الخلق، ويتمتعوا بها.

= وفيه: تذكير القوة والحكمة - أيضا - لأنه أنشأ السحاب الثقال، وساقه إلى الموضع الذي قدر أن يرسل القطر هنالك، ومعلوم أن ذلك الإرسال ليس من فعل السحاب؛ لأن السحاب يمتنع عن إرسال القطر حتى ينتهي إلى الموضع الذي أمر بإرسال القطر فيه، ولو كان ذلك للسحاب نفسه، لكان أينما مر يعمل في الإرسال، ولو كان ذا ثقب لكانت الريح متى دخلت في الثقب أرسل السحاب ما أنشئ فيه من القطر، فإذا لم يوجد ذلك بان أن اللَّه - تعالى - بحكمته وقدرته ولطفه هو الذي أنشأ فيه ذلك، ودبر إرساله، لا أن يكون ذلك عمل السحاب، ولو أراد أحد من حكماء الأرض أن يعرف المعنى الذي له صلح ذلك السحاب أن يستمسك فيه القطر، ولا يستمسك في مكان آخر، لم يقف عليه، فذكرهم، ليعلموا أن حكمته ليست على الوجه الذي ينتهي إليه حكم البشر، ولا قدرته مقدرة بقوى البشر؛ بل هو قادر على ما يشاء، فعال لما يريد.

= وفيه: أن تدبير السماء والأرض والهواء يرجع إلى الواحد القهار، إذ لا يتهيأ لأحد أن يمنع القطر المرسل من السماء عن الوصول إلى الموضع الذي أمر أن ينتهي إليه". [10]

وفي المراد من (المعصرات – ثجاجا) قال المفسرون:

- "في المراد من (المعصرات) ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها الرياح، قاله: ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، ومقاتل، وإنما قيل للرياح: معصرات، لأنها تستدرُّ المطر.

الثاني: أنها السحاب، قاله: ابن عباس، وأبو العالية، وسفيان، والربيع، والضحاك.

الثالث: أنها السماء، قاله: أُبي بن كعب، والحسن، وقتادة، وابن جبير.

- وفي الثجاج ثلاثة أقوال:

أحدهما: الكثير، المدرار، قاله: ابن زيد، ومجاهد.

الثاني: المنصبّ، قاله: ابن عباس

الثالث: المتتابع يتلو بعضه بعضا، قاله: قتادة".[11]

والجامع بين هذه الأقوال: أن الآية الكريمة تصور غزارة الماء، وتتابع نزوله.

والمقصود من هذا المشهد: ليس مجرد بيان كثرة المطر، وإنما تذكير الإنسان بالنعمة والقدرة، كما يظهر في سياق السورة الذي يعقب ذكر الماء ببيان آثار القدرة الإلهية في الأرض والنبات.

المبحث الثالث: المياه الموصوفة بصفاتها الحسية والمعنوية:

وهي متمثلة فيما يلي:

أولا: الماء الأُجاج:

شديد الملوحة، أو المرارة التي تمنع الانتفاع بالماء على الوجه المعتاد، وهو غير مستساغ للشراب، وهو مقابل للفرات في السياق القرآني، قال تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ. لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ} الواقعة/ 68 – 70.

أي: لو نشاء جعلنا هذا الماء النازل من السحاب العَذْب الطعم، الحلو المذاق، لو نشاء جعلناه مرا مالحا، فلا تشربون منه، ولا تنتفعون به في زروعكم لفعلنا، فهلا تشكرون الله تعالى على ما فعل معكم، ولطفه بكم، ومننه التي لا تعد ولا تحصى.

والآية من أوضح الآيات في تذكير الإنسان بنعمة الماء العذب، فالإنسان يشرب الماء بصورة معتادة حتى يكاد يغفل عن عظم النعمة، فجاء التعبير بقوله تعالى: {لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا} ليوقظ الشعور بالامتنان، ويظهر في ختام الآية: {فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ} أن المقصود ليس مجرد وصف الماء، وإنما حمل الإنسان على الاعتراف بالمنعم وشكر نعمته.

وكعادته الإمام الرازي – رحمه الله – يُمْتِعُنا، ويُتْحِفُنا بكثير من اللطائف، فقد قال أثناء تفسيره للآية الكريمة:

"خَصَّ هذا الماء بِالذِّكْرِ: لِأَنَّهُ أَلْطَفُ وَأَنْظَفُ، أَوْ تَذْكِيرًا لَهُمْ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِمْ، وَ(الْمُزْنُ) السَّحَابُ الثَّقِيلُ بِالْمَاءِ لَا بِغَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ و(الْأُجَاجِ) الْمَاءُ الْمُرُّ مِنْ شِدَّةِ الْمُلُوحَةِ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {هَذَا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ} الْفُرْقَانِ/ 53، وقد ذَكَرَ فِي الْمَاءِ الطَّيِّبِ – وهو العذب – صِفَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: عَائِدَةٌ إِلَى طَعْمِهِ، وَالْأُخْرَى عَائِدَةٌ إِلَى كَيْفِيَّةِ مَلْمَسِهِ وَهِيَ الْبُرُودَةُ وَاللَّطَافَةُ.

وَفِي الْمَاءِ الْآخَرِ – وهو الأجاج - أَيْضًا صِفَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: عَائِدَةٌ إلى طعمه، والأخرى عائدة إلى كيفية لمسه وَهِيَ الْحَرَارَةُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {فَلَوْلا تَشْكُرُونَ} لَمْ يَقُلْ عِنْدَ ذِكْرِ الطَّعَامِ الوارد في قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ. أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ.

لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ} الواقعة/ 63 – 65، فلم يذكر الله تعالى (الشُّكْرَ) كما قال في الماء (فلولا تشكرون) وَذَلِكَ لِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ فِي الْمَأْكُولِ أَكْلَهُمْ، فَلَمَّا لَمْ يَقُلْ: (تَأْكُلُونَ) لَمْ يَقُلْ: {تَشْكُرُونَ}، وَقَالَ فِي الْمَاءِ: {تَشْرَبُونَ} فَقَالَ: تَشْكُرُونَ.

والثاني: أن في المأكول قال: {تَحْرُثُونَ} فَأَثْبَتَ لَهُمْ سَعْيًا، فَلَمْ يَقُلْ: {تَشْكُرُونَ} وَقَالَ في الماء: {أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ} لَا عَمَلَ لَكُمْ فِيهِ أَصْلًا فَهُوَ مَحْضُ النِّعْمَةِ، فَقَالَ: {فَلَوْلا تَشْكُرُونَ}.

وَفِيهِ وَجْهٌ ثَالِثٌ: وَهُوَ الْأَحْسَنُ أَنْ يُقَالَ: النِّعْمَةُ لَا تَتِمُّ إِلَّا عِنْدَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، أَلَا تَرَى أَنَّ فِي الْبَرَارِيِّ الَّتِي لَا يُوجَدُ فِيهَا الْمَاءُ لَا يَأْكُلُ الْإِنْسَانُ شَيْئًا مَخَافَةَ الْعَطَشِ، فَلَمَّا ذَكَرَ الْمَأْكُولَ أَوَّلًا وَأَتَمَّهُ بِذِكْرِ الْمَشْرُوبِ ثَانِيًا قَالَ: {فَلَوْلا تَشْكُرُونَ} عَلَى هذه النعمة التامة". (12)

ثانيا: الماء المهين:

هو الماء الضعيف الحقير، ويقصد به: مني الرجل لضعف تحمل مكوناته للعوامل الخارجية، قال تعالى: {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ} المرسلات/20.

وفي هذه الآية دعوة إلى الضالين المكذبين من المشركين الذين قدرة الله تعالى على البعث، بأن يعيدوا النظر في موقفهم هذا، وتكذيبهم به، واستبعادهم له، حتى يخلصوا بأنفسهم من هذا الويل المعد لهم، فإن لم يبادروا بهذه الفرصة ويصححوا موقفهم فيها، أقلعت سفينة النجاة عنهم، وتركتهم يغرقون في غيهم وضلالهم.

والسياق القرآني لا يقف عند بيان أصل الخلق، بل يجعله دليلًا على قدرة الله تعالى على الإعادة؛ فالذي أنشأ الإنسان أول مرة من هذا الماء قادر على إعادته بعد الموت. فهؤلاء الذين يستبعدون وقوع البعث، ويستعجزون قدرة الله عن إعادتهم إلى الحياة بعد الموت، يقول الله تعالى لهم: ألم نخلقكم من ماء مهين؟

فما الفرق بين خلقهم من هذا الماء المهين، وبين بعثهم من التراب؟

وفي وصف هذا الماء الذي خلق منه الإنسان بأنه مهين: إشارة إلى أن هذا الماء في ظاهره شيء لا وزن له في مرأى العين، بل هو شيء ضعيف مستقذر، وفي ذلك تذكير لنعم الله تعالى ومِنَنِه على خلقه حتى لا يتكبروا، وينقادوا لخالقهم فيما يأمرهم به.

وهذا ما نطقت به عبارات المفسرين، حيث قالوا:

"جائز أن يكون ذكر الله تعالى هذا؛ ليدفع عنهم الإشكال والريب الذي اعترض لهم في أمر البعث؛ لأن الأعجوبة في الإعادة ليست بأكثر من الأعجوبة في الإنشاء والابتداء، فذكر ابتداء خلقهم؛ لينتفي عنهم الريب في الإعادة.

وجائز أن يكون ذكر خلقهم من الماء المهين، وهو الماء المستعاف المستقذر؛ ليدعوا تكبرهم وتجبرهم على رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، وينقادوا له، ويجيبوا إلى ما دعاهم إليه.

وأخبر أنه خلقهم في الظلمات التي لا ينتهي إليها تدبير البشر؛ ليعلموا أنه قادر على ما يشاء، ويعرفوا أنه لا يخفى عليه شيء؛ فيحملهم ذلك على المراقبة، وعلى التيقظ والتبصر.

فيكون في ذكر هذا كله تذكير للآلاء والنعم، وتذكير القدرة، والسلطان والحكمة.

فوجه تذكير النعم: أن اللَّه - تعالى - في أول ما أنشأه، أنشأه نطفة قذرة، وجعل لها مكانا يغيب عن أبصار الخلق، ولم يفوض تدبيرها إلى البشر، وكذلك في الوقت الذي أنشأه علقة ومضغة، لم يفوض تدبيره إلى

أحد من خلائقه؛ لأنه في ذلك الوقت بحيث يستعاف، ويستقذر، ولا يدفع عنه المعنى الذي به وقعت الاستعافة، والاستقذار بالتطهير؛ فجعل له قرارا مكينا يستتر به عن أبصار الخلائق.

- واعْلَمْ أَنَّ هَذَا هُوَ النَّوْعُ الثَّالِثُ مِنْ تَخْوِيفِ الْكُفَّارِ وَوَجْهُ التَّخْوِيفِ فِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَّرَهُمْ عَظِيمَ إِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ، وَكُلَّمَا كَانَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَكْثَرَ كَانَتْ جِنَايَتُهُمْ فِي حَقِّهِ أَقْبَحَ وَأَفْحَشَ، وَكُلَّمَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ الْعِقَابُ أَعْظَمَ، فَلِهَذَا قَالَ عَقِيبَ ذِكْرِ هَذَا الْإِنْعَامِ: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}.

الثَّانِي: أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَّرَهُمْ كَوْنَهُ قَادِرًا عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَظَاهِرٌ فِي الْعَقْلِ أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى الِابْتِدَاءِ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ، فَلَمَّا أَنْكَرُوا هَذِهِ الدَّلَالَةَ الظَّاهِرَةَ، لَا جَرَمَ قَالَ فِي حَقِّهِمْ: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ". [13]

ثالثا: الماء الفرات:

الشديد العذوبة، السائغ في الشرب، وهو ضمن النعم الكثيرة التي أنعم بها الله تعالى على عباده، والتي ساقها ضمن آيات سورة المرسلات الكريمة، قال تعالى: {وَأَسْقَيْناكُمْ مَاءً فُراتاً} المرسلات/77.

وقد جاء ذكره في سياق تعداد مظاهر القدرة والنعمة، إذ سبق ذكر خلق الإنسان والأرض والجبال، ثم جاء ذكر الماء الفرات باعتباره من ضروريات الحياة.

ومن اللطائف القرآنية أن الآية لا تكتفي بذكر الماء، وإنما تصفه بالعذوبة، فتجمع بين أصل النعمة ووصفها الذي يبين كمال الانتفاع بها.

ولولا فضل الله تعالى وإنزال هذا الماء علينا لم نكن نصل إليه بقوانا وحيلنا، ثم تفضله سبحانه وتعالى وإنزاله هذا الماء من السماء إلى الأرض، ورغم ذلك لم يخرج من حد العذوبة، ولا حل به التغير بما مسته الأرض، واختلطت به، وصدق الله تعالى إذ يقول: {فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ} المؤمنون/14، وقال: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} لقمان/11.

رابعا: الماء الدافق:

والماء الدافق، والمهين – السابق ذكره - كلاهما متعلق بأصل خلق الإنسان، فالماء الدافق: هو الماء الذي يحصل منه الخلق، وقد فسره المفسرون بالمني، والنطفة التي تخرج متدفقة منصبة في رحم المرأة، وقد أراد الله تعالى بذلك: مَنِيّ وماء الرجل، والمرأة معا، وجعله واحدا لامتزاجهما، ومنه خُلِق الإنسان، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: { يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} الطارق/7، وإلى هذا النوع من الماء قال تعالى: {خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ} الطارق/6، وفي ذلك دعوة للمنكرين والمكذبين قدرة الله تعالى على البعث، وإحياء الناس مرة أخرى، فكأن الله تعالى يقول لهذا النوع الإنساني المتغطرس المتكبر المكذب: من أي شيء خُلق هذا الإنسان، فيعلم ويتأكد أن من خلقه من ماء مهين ضعيف، وصوره وسواه بشرا، قادر أن يعيده بشرا سويا بعد موته، وذلك أهون وأيسر لو تعقلون.

فلينظر الإنسان بهذا العقل إلى قدرة الله تعالى في إبداع هذه الذات وتصويرها، فإنه لو نظر بهذا العقل إلى هذا الذي يُوجّه إليه من حقائق، لعرف طريق الحق، وسلك مسالك الهدى.

فمن أين خلق هذا الإنسان، ذو العقل والبصر؟ خلق من ماء دافق، أي ماء سائل، جار، منصب، متدفق في رحم المرأة.

وسورة الطارق فيها تأكيد لهذا الاتجاه الإيماني، وهو التأكيد على قضية البعث، التي طالما أنكرها الكافرون، فالذي خلق الإنسان ابتداءً قادر على إعادته.

ومن هنا تأتي الآية في سياق الاستدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني، وهو استدلال قرآني متكرر في مواضع كثيرة.

يقول الإمام الرازي – رحمه الله – حول تفسير هذه الآية الكريمة متحدثا عن ربط هذه الآية الكريمة بالدلالة على قدرة الله تعالى الخلاقة:

"فِي تَوَلُّدِ الْإِنْسَانِ مِنَ النُّطْفَةِ دَلَالَةً عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ الْمُخْتَارِ، وهذا مِنْ أَظْهَرِ الدَّلَائِلِ، لِوُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ التَّرْكِيبَاتِ الْعَجِيبَةَ فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ أَكْثَرُ، فَيَكُونُ تَوَلُّدُهُ عَنِ الْمَادَّةِ الْبَسِيطَةِ أَدَلَّ عَلَى الْقَادِرِ الْمُخْتَارِ.

ثَانِيهَا: أَنَّ اطِّلَاعَ الْإِنْسَانِ عَلَى أَحْوَالِ نَفْسِهِ أَكْثَرُ مِنَ اطِّلَاعِهِ عَلَى أَحْوَالِ غَيْرِهِ، فَلَا جَرَمَ كَانَتْ هَذِهِ الدَّلَالَةُ أَتَمَّ.

ثَالِثُهَا: أَنَّ مُشَاهَدَةَ الْإِنْسَانِ لِهَذِهِ الْأَحْوَالِ فِي أَوْلَادِهِ، وَأَوْلَادِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ دَائِمَةٌ، فَكَانَ الِاسْتِدْلَالُ بِهِ عَلَى الصَّانِعِ الْمُخْتَارِ أَقْوَى.

رَابِعُهَا: وَهُوَ أَنَّ الِاسْتِدْلَالَ بِهَذَا الْبَابِ، كَمَا أَنَّهُ يَدُلُّ قَطْعًا عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ الْمُخْتَارِ الْحَكِيمِ، فَكَذَلِكَ يَدُلُّ قَطْعًا عَلَى صِحَّةِ الْبَعْثِ وَالْحَشْرِ وَالنَّشْرِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ حُدُوثَ الْإِنْسَانِ إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ اجْتِمَاعِ أَجْزَاءٍ كَانَتْ مُتَفَرِّقَةً فِي بَدَنِ الْوَالِدَيْنِ، بَلْ فِي جَمِيعِ الْعَالَمِ، فَلَمَّا قَدَرَ الصَّانِعُ عَلَى جَمْعِ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ الْمُتَفَرِّقَةِ حَتَّى خَلَقَ مِنْهَا إِنْسَانًا سَوِيًّا، وَجَبَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ بَعْدَ مَوْتِهِ وَتَفَرُّقِ أَجْزَائِهِ لَا بد وَأَنْ يَقْدِرَ الصَّانِعُ عَلَى جَمْعِ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ وَجَعْلِهَا خَلْقًا سَوِيًّا، كَمَا كَانَ أَوَّلًا".[14]

المبحث الرابع: المياه المرتبطة بالجزاء على النعيم أو العذاب:

وهي متمثلة فيما يلي:

أولا: الماء الصديد:

وهو شراب أهل جهنم، قال تعالى في حق الكافر: {مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ} إبراهيم/16، والمقصود بيان شدة ما أعده الله تعالى للكافرين من العذاب، ثم قال سبحانه: {يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} إبراهيم/ 17، فجمع السياق بين شدة

العذاب واستمرار أثره، فلا ينتهي بالموت ولا ينقطع. والدلالة فيها: تصوير شدة العذاب الأخروي، في مقابلة ما أعده الله تعالى لأهل الإيمان من النعيم.

وعن المراد بهذا الماء قال المفسرون:

"بَيَّنَ ذَلِكَ الْمَاءَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَمَا هُوَ، فَقَالَ: هُوَ صَدِيدٌ، وَالصَّدِيدُ: مَا يَسِيلُ مِنْ جُلُودِ أَهْلِ النَّارِ مِنَ الْقَيْحِ وَالدَّمِ".[15]

يقول الإمام الرازي – رحمه الله -:

"عَذَابُ أَهْلِ النَّارِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ، فَلِمَ خَصَّ هَذِهِ الْحَالَةَ بِالذِّكْرِ؟

الْجَوَابُ: يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْحَالَةُ أَشَدَّ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ فَخَصَّصَ بِالذِّكْرِ مَعَ قَوْلِهِ: وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ". [16]

فالماء الصديد هو: الماء الناتج من القروح التي تجيء من حرق جلودهم، وكلما نضجت جلودهم بُدلوا جلودا غيرها ليذوقوا العذاب، وكأن العذاب يستقبلهم من وراء عنتهم، وتكبرهم، ولجاجتهم عذابان:

أحدهما: الإبقاء في جهنم وهو ذاته عذاب.

الثاني: أن شرابهم ذاته عذابه أليم، وهو الصديد، الموصوف بقوله تعالى: {يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} إبراهيم/17.

ثانيا: الماء المهل:

وهو شراب أهل جهنم أيضا، قال تعالى: {وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً} الكهف/29، هذه جهنم تستقبلهم بسبب بعدهم عن الحق، وانغماسهم في الباطل انغماسا، وإنها بئس الشراب، والمقام، ولذا قال تعالى: {بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرتَفَقًا} (بئس الشراب) لأنه يشوي الوجوه إذا سكب عليها، ويقطع أمعاءهم.

وفي المراد بماء المهل قال المفسرون:

"فيه سبعة تأويلات:

أحدها: أنه القيح والدم، قاله: مجاهد. **الثاني:** ماءٌ غليظٌ كدُرْدِيّ، قاله: ابن عباس.

الثالث: أنه كل شيء أذيب حتى مَاع، قاله: ابن مسعود. **الرابع:** هو الذي قد انتهى حره، قاله: سعيد بن جبير

الخامس: كل شيء أذبته من نحاس، أو رصاص، أو نحو ذلك، فهو مُهل، قاله: أبو عبيدة، والزجاج.

السادس: أنه الصَّديد، قاله: ابن الأنباري.

السابع: أنّه الرّماد الذي ينفذ عن الخُبزة إذا خرجت من التَّنُّور، قاله: ابن الأنباري". [17]

والقدر المشترك بين هذه الأقوال هو بيان شدة الحرارة، والغلظ والقبح، وأن هذا الشراب ليس إغاثة حقيقية، وإنما هو نوع آخر من العذاب.

وفي قوله تعالى: {يُغَاثُوا} مع كون ما يعطونه عذابًا شديدًا، تصوير بالغ لشدة المفارقة، فالاستغاثة بالماء عادةً تكون لطلب الراحة ودفع العطش، فإذا جاء الماء نفسه سببًا للأذى والعذاب، اكتمل تصوير شدة الموقف.

يقول الإمام الرازي – رحمه الله -:

"هَذِهِ الِاسْتِغَاثَةُ لِأَنَّهُمْ إِذَا طَلَبُوا مَاءً لِلشُّرْبِ فَيُعْطَوْنَ هَذَا الْمُهْلَ، قَالَ تَعَالَى: {تَصْلى نَارًا حامِيَةً. تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ} الْغَاشِيَةِ/ 4، 5، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَسْتَغِيثُوا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ فَيَطْلُبُوا مَاءً يَصُبُّونَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ لِلتَّبْرِيدِ فَيُعْطَوْنَ هَذَا الْمَاءَ، قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ: {أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ} الْأَعْرَافِ/ 50، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: {سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ} إِبْرَاهِيمَ/ 50، فَإِذَا اسْتَغَاثُوا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ صُبَّ عَلَيْهِمُ الْقَطْرَانُ الَّذِي يَعُمُّ كُلَّ أَبْدَانِهِمْ كَالْقَمِيصِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ} وَارِدٌ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِهْزَاءِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {بِئْسَ الشَّرابُ} أَيْ: أَنَّ الْمَاءَ الَّذِي هُوَ كَالْمُهْلِ بِئْسَ الشَّرَابُ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِشُرْبِ الشَّرَابِ تَسْكِينُ الْحَرَارَةِ، وَهَذَا يَبْلُغُ فِي احْتِرَاقِ الْأَجْسَامِ مَبْلَغًا عَظِيمًا".[18]

ثالثا: الماء غير الآسن:

وهو الماء الجاري المتجدد، غير المتغير، الخالي من الملوثات نتيجة للفساد، والركود، والذي أعده الله تعالى جزاء لأهل الجنة، قال تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ} محمد/15.

"(فالآسِن) المتغيّر الرّيح، قاله: أبو عبيدة، والزجاج، وقال ابن قتيبة: هو المتغير الرّيح، والطّعم.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما – وَالْحَسَنُ: وَقَتَادَةُ: {غير آسن} يَعْنِي: غَيْرَ مُتَغَيِّرٍ، وَقَالَ قَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَعَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ: {غير آسن} غَيْرُ مُنْتِنٍ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: أسن الماء إذ تَغَيَّرَ رِيحُهُ". [19]

وهذا الوصف من خصائص نعيم الجنة، فالماء هناك دائم الصفاء والتجدد، لا يلحقه ما يلحق مياه الدنيا من التغير والكدورة.

رابعا: الماء الحميم:

حم الماء: أي: سخن، والماء الحميم: شديد السخونة، والغليان، وهو ما أعده الله تعالى جزاء لأهل لنار، ماء شديد الحرارة، يشوي الوجوه، ويُقطع الأمعاء من شدة غليانه، قال تعالى: {وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ} محمد/15.

وهذا النوع من الماء هو تتمة لما ورد في الآية السابقة التي تحدثت عن نعيم وجزاء أهل الجنة، على ما بينهما من مقابلة بين ما هو في النار، وسقوا ماء حميما، وبين من هو على بينة من ربه وسقوا ماء جديدا نقيا صافيا لا يتغير.

ولا شك أن كل ذي لُب يرى بونا وفرقا شاسعا، بين حسن عاقبة المؤمنين، وسوء عاقبة الكافرين.

وبذلك نلحظ أن الآيتين قد فرقت بين الأخيار والأشرار في المنهج والسلوك، وفي المصير الذي يصير إليه كل فريق.

وقد جمع السياق بين الماء غير الآسن في الجنة، والماء الحميم في النار، في مقابلة بديعة بين مصير أهل التقوى ومصير أهل الكفر.

فالآية لا تعرض مجرد نوعين من الماء، وإنما تعرض صورتين متقابلتين للجزاء الأخروي؛ ماءً دائم الصفاء في الجنة، وماءً شديد الحرارة في النار. وقد نص المفسرون على هذا التقابل.

وفي التعقيب على الآيتين السابقتين، ونوعي الماء غير الآسن، والماء الحميم قال الشيخ/ محمد عزة دروزة – رحمه الله –: "وقد استهدفت الآية تقرير عدم إمكان التسوية في المصائر الأخروية بين الصالحين المهتدين، والضالين المسيئين لعدم إمكان التسوية بينهم بسبب مسلك كل منهم، فالمتقون موعودون بجنة فيها الأنهار من الماء النقي السائغ، واللبن الطيب، والخمر اللذيذ، والعسل المصفى، وكل الثمرات بالإضافة إلى رضاء الله ومغفرته، في حين أن الكافرين الضالين المسيئين مقدر عليهم الخلود في النار، يشربون فيها الماء الشديد الغليان الذي يقطع الأمعاء.

والتعبيرات الوصفية عما في الجنة والعذاب في الآخرة مستمدة من مألوفات الدنيا في أصلها.

وقد جاءت بأسلوب التفخيم، والتعظيم لحظ الناجين، والتهويل لحظ الأشقياء: للتشويق والإرهاب مما جرى عليه النظم القرآني واستهدفه على ما نبهنا عليه في مناسبات عديدة سابقة.

مع التنبيه إلى أن ما فيها ليس خارجا عن نطاق قدرة الله تعالى ووجوب الإيمان بحقيقتها المغيبة التي أخبر عنها القرآن والوقوف عند ذلك مع الإيمان بأن لا بد من حكمة سامية في ذكر ذلك لعل منها ما ذكرناه من تشويق وترهيب". [20]

خامسا: الماء المسكوب:

هذا نوع آخر من الماء، والذي أعده الله تعالى جزاء شرابا لأهل الجنة، وهو ماء ملطف للأرض، يعطي الإحساس بالراحة للعين، وهو يختلف عن ماء الدنيا، لأنه ينصب انصبابا من أعلى إلى أسفل، دائم الجريان في غير أخدود لا ينقطع، قال تعالى: {وَماءٍ مَسْكُوبٍ} الواقعة/31.

والمراد منه في الجملة: تصوير وفرة النعيم، وسهولة الانتفاع به، بخلاف حال الماء في الدنيا الذي قد يحتاج الإنسان إلى طلبه وحفظه.

يقول الإمام الرازي – رحمه الله – حول تفسير المراد من هذا الماء: "فِيهِ وُجُوهٌ:

الْأَوَّلُ: مَسْكُوبٌ مِنْ فَوْقُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَرَبَ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ عِنْدَهُمُ الْآبَارُ وَالْبِرَكُ فَلَا سَكْبَ لِلْمَاءِ عِنْدَهُمْ بِخِلَافِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي فِيهَا الْعُيُونُ النَّابِعَةُ مِنَ الْجِبَالِ الْحَاكِمَةُ عَلَى الْأَرْضِ تَسْكُبُ عَلَيْهَا.

الثَّانِي: جَارٍ فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ، لِأَنَّ الْمَاءَ الْمَسْكُوبَ يَكُونُ جَارِيًا فِي الْهَوَاءِ وَلَا نَهْرَ هُنَاكَ، كَذَلِكَ الْمَاءُ فِي الْجَنَّةِ.
الثَّالِثُ: كَثِيرٌ وَذَلِكَ الْمَاءُ عِنْدَ الْعَرَبِ عَزِيزٌ لَا يُسْكَبُ، بَلْ يُحْفَظُ وَيُشْرَبُ، فَإِذَا ذَكَرُوا النِّعَمَ يَعُدُّونَ كَثْرَةَ الْمَاءِ وَيُعَبِّرُونَ عَنْ كَثْرَتِهَا بِإِرَاقَتِهَا وسكبها، والأول أصح". [21]

سادسا: ماء السلسبيل:

وهو ماء في غاية من السلاسة، دائم الجريان، مستساغ الطعم، وسهولة المرور في الحلق من شدة العذوبة، ويَنْبُعُ في الجنة من عَين تسمى سلسبيلا، لأن ماءها على هذه الصفة، وبه سميت العين، من تسمية الموصوف بصفته، فهو شراب لذيذ أعده الله ثوابا لأهل الجنة، وهذا من إعجاز القرآن الكريم في جلال التصوير، وروعة الأداء، وصدق العرض، قال تعالى: {وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً. عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً} الإنسان/ 17،18.

ومن المهم هنا تصحيح التعبير :السلسبيل في الآية اسم عين من عيون الجنة، وليس من الضروري جعله اسمًا لنوع مستقل من الماء.

وقد ذكر المفسرون أقوالًا في اشتقاق الاسم ودلالته على السلاسة وسهولة الانحدار في الحلق.

ومن ثم يندرج هذا في البحث تحت «أسماء مياه الجنة وأوصافها»، لا تحت أنواع المياه الدنيوية.

- وحول تفسير هاتين الآيتين قال المفسرون:

"كَانَتِ الْعَرَب تستطيب الزنجبيل، وَتَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلُ وَبِالْخَمْرِ مُمْتَزِجِينَ، فَخَاطَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَعْرِفُونَ وَيَسْتَحِبُّونَ فِي الدُّنْيَا، يَقُولُ: لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِثْلُ مَا تَسْتَحِبُّونَ فِي الدُّنْيَا إِنْ آمَنْتُمْ.

{وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا} يُشَوِّقُ، وَيُطْرِبُ، وَالزَّنْجَبِيلُ: مِمَّا كَانَتِ الْعَرَبُ تَسْتَطِيبُهُ جِدًّا، فهم يُحِبُّونَ جَعْلَ الزَّنْجَبِيلِ فِي الْمَشْرُوبِ، لِأَنَّهُ يُحْدِثُ فِيهِ ضَرْبًا مِنَ اللَّذْعِ، فَلَمَّا كَانَ كَذَلِكَ وَصَفَ اللَّهُ شَرَابَ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِذَلِكَ، وَلَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ فِي الطِّيبِ عَلَى أَقْصَى الْوُجُوهِ.

وعلى هذا وَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ يُسْقَوْنَ فِي الْجَنَّةِ الْكَأْسَ الْمَمْزُوجَةَ بِزَنْجَبِيلِ الْجَنَّةِ، قَالَ مُقَاتِلٌ: لَا يُشْبِهُ زَنْجَبِيلَ الدُّنْيَا، وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلُّ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ وَسَمَّاهُ لَيْسَ لَهُ فِي الدُّنْيَا مِثْلٌ، فكُلُّ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ، فَلَيْسَ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا الِاسْمُ

وَقِيلَ: هُوَ عَيْنٌ فِي الْجَنَّةِ يُوجَدُ مِنْهَا طَعْمُ الزَّنْجَبِيلِ، قَالَ قَتَادَةُ: يَشْرَبُهَا الْمُقَرَّبُونَ صِرْفًا، وَيُمْزَجُ لِسَائِرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. {عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا} قَالَ قَتَادَةُ: سَلِسَةٌ مُنْقَادَةٌ لَهُمْ يُصَرِّفُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا.

- وعن سر تسمية هذه العين بالسلسبيل قال المفسرون:

قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: سُمِّيَتْ سَلْسَبِيلًا لِأَنَّهَا تَسِيلُ عَلَيْهِمْ فِي الطُّرُقِ وَفِي مَنَازِلِهِمْ تَنْبُعُ مِنْ أَصْلِ الْعَرْشِ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ إِلَى أَهْلِ الْجِنَانِ وَشَرَابُ الْجَنَّةِ عَلَى بَرْدِ الْكَافُورِ وَطَعْمِ الزَّنْجَبِيلِ وَرِيحِ الْمِسْكِ.

وقَالَ الزَّجَّاجُ: سُمِّيَتْ سَلْسَبِيلًا: لِأَنَّهَا فِي غَايَةِ السَّلَاسَةِ تَتَسَلْسَلُ فِي الْحَلْقِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ: لِسَلَاسَةِ سَيْلِهَا وَحِدَّةِ جَرْيِهَا.

وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ: لِسَلَاسَتِهَا فِي الْحَلْقِ وَاخْتَارَ رحمه الله أَنَّهَا تَعُمُّ ذَلِكَ كُلَّهُ وَهُوَ كَمَا قَالَ.

وَالْفَائِدَةُ فِي ذِكْرِ السَّلْسَبِيلِ: هُوَ أَنَّ ذَلِكَ الشَّرَابَ يَكُونُ فِي طَعْمِ الزَّنْجَبِيلِ، وَلَيْسَ فِيهِ لَذْعَةٌ لِأَنَّ نَقِيضَ اللَّذْعِ هُوَ السَّلَاسَةُ"[22].

وما أجمل ما سطره لنا الحافظ ابن كثير – رحمه الله – متحدثا عن نعيم الأبرار من أهل الجنة، فقال:

"وقوله تعالى: {وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلًا} أَيْ: وَيُسْقَوْنَ يَعْنِي الْأَبْرَارَ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْأَكْوَابِ كَأْساً، أَيْ: خَمْرًا كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلًا، فَتَارَةً يُمْزَجُ لَهُمُ الشَّرَابُ بِالْكَافُورِ وَهُوَ بَارِدٌ، وَتَارَةً بِالزَّنْجَبِيلِ وَهُوَ حَارٌّ لِيَعْتَدِلَ الْأَمْرُ، وَهَؤُلَاءِ يُمْزَجُ لَهُمْ مِنْ هَذَا تَارَةً وَمِنْ هَذَا تَارَةً، وَأَمَّا الْمُقَرَّبُونَ فَإِنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا صرفا كما قال قتادة وغير واحد، وقال تعالى: {عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا} أَيِ: الزَّنْجَبِيلُ عَيْنٌ في الجنة تسمى سلسبيلا، وقال عِكْرِمَةُ: اسْمُ عَيْنٍ فِي الْجَنَّةِ". [23]

المبحث الخامس: المياه الواردة في سياق القصص والأماكن والأمثال القرآنية:

وهي متمثلة فيما يلي:

أولا: الماء المغيض:

وهو الذي نزل في الأرض وغاب فيها، وغاض الماء: قل ونقص، قال تعالى: {وَغِيضَ الْماءُ} هود/44، "يقال: غاض الماء يغيض: إذا غاب في الأرض، وغاض الشيء، وغاضه غيره نحو نقص، ونقصه غيره". ينظر: مفردات غريب القرآن/ للإمام الأصفهاني، ص 368، زاد المسير، للإمام ابن الجوزي 376/2.

والآية تصور انتهاء الطوفان بأمر الله تعالى، بعد أن أدى الماء مهمته في إهلاك القوم الظالمين ونجاة سيدنا نوح (عليه السلام) ومن معه.

وفي التعبير بقوله تعالى: «وغيض الماء"إشارة إلى أن الماء الذي بلغ غاية الكثرة والانتشار يمكن أن يذهب وينحسر بأمر الله تعالى، وهو ما يلفت النظر إلى تمام القدرة الإلهية على تسخير عناصر الكون، وبيان سلطان الله تعالى على الماء، وتسخيره له وفق حكمته وتقديره.

ثانيا: الماء الغور:

الذي يذهب في الأرض بعيدا، ويغيب فيها فيصعب الوصول إليه، ولا يُنتفع به، قال تعالى متحدثا عن قصة أصحاب الجنتين، وجزاء الذي استطال، وتكبر على أخيه، ومنع حق الله تعالى: {فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا. أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا} الكهف/40،41، فالآية واردة في قصة صاحب الجنتين، وفيها تهديد ضمني لمن اغتر بماله ونعمته، إذ إن النعمة التي يظن الإنسان أنها ثابتة يمكن أن تزول في لحظة، ولا يستطيع هو أن يردها.

ومن هنا يظهر الارتباط بين ذكر الماء، وبين قضية شكر النعمة وعدم الاغترار بها.

قال المفسرون: "أي: غائرا منقطعا ذاهبا لا تناله الأيدي، ولا الدلاء، فتكون أعدم أرض للماء بعد أن كانت أوجد أرض للماء".[24]

يقول الشيخ/ أبو زهرة – رحمه الله – واصفا تلك الحالة التي يصير إليها كل متكبر عن الحق:

"هذا هو حسبان السماء لَا يبقي ولا يذر، وعسى أن يجف الماء فلا تنزل صاعقة ماحقة، ولكن يجف الماء، وهو مادة الحياة للنبات، ولذا قال تعالى عن الرجل المؤمن: {أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا} أي: أن ماءها يغور في الأرض ويختفي من سطح الأرض إن كان ماء عيون وآبار، أي: على أعماق بعيدة من باطن الأرض فلن تستطيع الحصول عليه، وهذا معنى قوله تعالى: {فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا}، أي: يتعذر عليك طلبه ولا تجده ولا تجد عوضا عنه، لَا تجد لها سقيا ولا رعيا وحينئذ يجف لك الشجر والزرع ويصير حطاما".[25]

ثالثا: ماء مدين:

قال تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ} القصص/23.

أي: لما ورد، ووصل سيدنا موسى – عليه السلام - ماء مدين، وهو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم، وهذا البئر يُنسب لقبيلة مدين ... إلخ القصة المعروفة، ووقوفه بجانب ابتي سيدنا شعيب – عليه السلام -.

وماء مدين ليس اسمًا لنوع مستقل من الماء، وإنما هو إضافة مكانية؛ أي: الماء الموجود في مدين، والمراد به الموضع الذي كان الناس يسقون منه.

وهذه الإضافة تكشف عن استعمال القرآن للماء باعتباره موردًا للحياة والاجتماع والمعاش، فقد اجتمع الناس حوله لسقي مواشيهم، وورد إليه سيدنا موسى - عليه السلام - عند خروجه من مصر.

رابعا: ماء السراب:

ما تراه العين نصف النهار، ويخيل لها أنه ماء، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ} النور/39.

هذا مثل ضربه الله تعالى لبيان حال الكفار المؤمنين بكفرهم، الذين يحسبون أنهم على شيء من الاعتقادات، والأعمال، والحقيقة: أنهم ليسوا على شيء، فمثلهم فِي ذلك كمثل السراب الَّذِي يُرَى في الصحاري، والقيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام ملئ.

فهذا تشبيه ما يظنونه خيرا، ويفعلون أعمالا لا يريدون بها ما عند الله تعالى، بل يريدون التفاخر، والتعاظم بها، ولا يحتسبون أنها مقربة لله؛ لأنهم كانوا يشركون به.

"والسَّرَابُ هو: الشُّعَاعُ الَّذِي يُرَى نِصْفَ النَّهَارِ عِنْدَ شِدَّةِ الْحَرّ فِي الْبَرَارِيّ، يُشْبِهُ الْمَاءَ الْجَارِيَ عَلَى الْأَرْضِ يَظُنُّهُ مَنْ رَآهُ مَاءً، فإذا أتاه العطشان ليشرب منه {لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً} مما طلبه وأراده، فكذلك الكافر يظن

أنه يثاب في صدقته، وعتقه، وسائر أعماله، فإذا جاءه يوم القيامة وجده هباءً منثوراً ولا ثواب له، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَقَدِمْنا إِلى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً} الْفَرْقَانِ/ 23، {وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ} أي يوم القيامة، عند عمله، وهذا كما قال: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ} الفجر/ 14"[26].

وهنا يلزم التنبيه إلى أن السراب ليس ماءً حقيقةً، وإنما هو صورة تشبيهية متعلقة بالماء.

وقد ضرب الله تعالى به مثلًا لأعمال الكافرين التي يظنون أنها نافعة لهم، فإذا جاء يوم الحساب لم يجدوا لها الثواب الذي كانوا يتوقعونه، وعليه فإن إدراج السراب في الدراسة يكون من باب تصوير الماء المتوهم في القرآن، لا أنه من أنواع الماء الحقيقية.

خامسا: الماء المعين:

الظاهر الذي يسيل ويسهل الحصول عليه والانتفاع به، - ويعتبر هذا الماء وما ورد في الفقرة رقم ثانيا والواردة في سورة الكهف – وهو الماء الغور - وصفان متقابلان في سياق واحد، قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ} الملك/30.

في هذه الآية يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بتوجيه سؤال إنكاري للمعرضين عنه عما إذا كان يستطيع أحدهم أن يأتيهم بالماء الدائم الظاهر الجاري إذا ما أصبح ماؤهم غائرا في الأرض.

ففي الآية مقابلة بين:

- الماء الغائر الذي لا يمكن الوصول إليه.
- والماء المعين الظاهر الذي ينتفع به الناس.

وهذه المقابلة تؤدي وظيفة عقدية واضحة؛ إذ تجعل النعمة المألوفة دليلًا على افتقار الإنسان إلى خالقه.

"**وَالْمَقْصُودُ:** أَنْ يَجْعَلَهُمْ مُقِرِّينَ بِبَعْضِ نِعَمِهِ لِيُرِيَهُمْ قُبْحَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، أَيْك أَخْبِرُونِي إِنْ صَارَ مَاؤُكُمْ ذَاهِبًا فِي الْأَرْضِ، {فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ}، فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَقُولُوا: هُوَ اللَّهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ حِينَئِذٍ: فَلِمَ تَجْعَلُونَ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ أَصْلًا شَرِيكًا لَهُ فِي الْمَعْبُودِيَّةِ؟ وَهُوَ كَقَوْلِهِ: {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ} الْوَاقِعَةِ/68، 69، وَقَوْلُهُ: (غَوْراً) أَيْ: غَائِرًا ذَاهِبًا فِي الْأَرْضِ، لا تناله الأيدي، ولا حتى الدلاء، يُقَالُ: غَارَ الْمَاءُ يَغُورُ غَوْرًا، إِذَا نَضَبَ وذهب في الأرض، وَ(الْمَعِينُ) الظَّاهِرُ الَّذِي تَرَاهُ الْعُيُونُ، وَقِيلَ: الْمَعِينُ الْجَارِي مِنَ الْعُيُونِ مِنَ الْإِمْعَانِ فِي الْجَرْيِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: مُمْعِنٌ فِي الْجَرْيِ". [27]

المبحث السادس: الدلالات العقدية والإيمانية والتربوية لتنوع ذكر الماء في القرآن الكريم:

لا يقتصر حضور الماء في القرآن الكريم على بيان كونه عنصرًا من عناصر الحياة، أو الإخبار عن بعض خصائصه وآثاره، وإنما يأتي ذكره في سياقات قرآنية متعددة تؤدي وظائف عقدية، وتربوية، وإيمانية متكاملة، فتارةً يَرِدُ الماء في سياق الاستدلال على قدرة الله تعالى ووحدانيته، وتارةً يأتي في معرض الامتنان

بالنعم والدعوة إلى شكر المنعم سبحانه، كما يَرِدُ في سياق الاستدلال على البعث والنشور، أو في وصف نعيم الجنة وعذاب أهل النار، أو في ضرب المثل بسرعة زوال الدنيا وفناء متاعها.

ومن ثم فإن المنهج الأدق في دراسة دلالات الماء في القرآن الكريم ألا يُنظر إلى اختلاف الألفاظ والأوصاف الواردة فيه على أنها بالضرورة أنواع مائية مستقلة، بل يُنظر إليها من خلال تنوع سياقات الذكر، والأوصاف، والوظائف، والمقاصد والدلالات، وهذا المنهج أكثر احترازًا من الناحية العلمية، وأقرب إلى طريقة المفسرين في فهم الآيات وربط بعضها ببعض.

وقد وردت هذه الدلالات على النحو التالي:

أولا: دلالة الماء على القدرة الإلهية:

من أبرز الدلالات التي يكشف عنها ورود الماء في القرآن الكريم دلالته على كمال قدرة الله تعالى وعظيم تدبيره، فقد جعل القرآن الكريم إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به من الآيات الدالة على عظمة الخالق سبحانه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ النحل/65. وقد بيّن الإمام الطبري – رحمه الله - أن هذه الآية جاءت في سياق إقامة الحجة على الخلق في توحيد الله تعالى، فقال في تفسيرها: "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ مُنَبِّهَ خَلْقِهِ عَلَى حُجَجِهِ عَلَيْهِمْ فِي تَوْحِيدِهِ، وَأَنَّهُ لَا تَنْبَغِي الْأُلُوهَةُ إِلَّا لَهُ، وَلَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ لِشَيْءٍ سِوَاهُ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَعْبُودَكُمُ الَّذِي لَهُ الْعِبَادَةُ دُونَ كُلِّ شَيْءٍ، {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}الأنعام/ 99، يَعْنِي: مَطَرًا، يَقُولُ: فَأَنْبَتَ بِمَا أَنْزَلَ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ الَّتِي لَا زَرْعَ بِهَا، وَلَا عُشْبَ، وَلَا نَبْتَ، {بَعْدَ مَوْتِهَا}بَعْدَ مَا هِيَ مَيْتَةٌ لَا شَيْءَ فِيهَا، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: إِنَّ فِي إِحْيَائِنَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ لَدَلِيلًا وَاضِحًا وَحُجَّةً قَاطِعَةً عُذْرَ مَنْ فَكَّرَ فِيهِ {لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} يَقُولُ: لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ هَذَا الْقَوْلَ فَيَتَدَبَّرُونَهُ وَيَعْقِلُونَهُ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ بِمَا دَلَّهُمْ عَلَيْهِ". (28)

ويتأكد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ السجدة/ 27.

فالقرآن ينتقل بالإنسان من المشاهدة الحسية إلى الاعتبار العقلي، إذ يرى أثر الماء في الأرض، ثم يُطالب بأن يتجاوز مجرد المشاهدة إلى إدراك قدرة من ساق الماء وأخرج به الزرع.

ويقول سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ المؤمنون/18، وفي هذه الآية يظهر وجه آخر من وجوه الدلالة على القدرة؛ فالله تعالى لم يذكر مجرد إنزال الماء، بل ذكر إنزاله بقدر، ثم إسكانه في الأرض، وأعقب ذلك ببيان قدرته على إذهابه. ومن ثم يتبين أن وجود الماء واستقراره وانتفاع الخلق به كل ذلك داخل في سلطان الله وتقديره.

وعليه: فإن الماء في هذا السياق يمثل آية كونية متجددة تذكّر الإنسان بأن الأسباب التي تقوم عليها الحياة ليست مستقلة عن مسببها، وأن انتظامها وتناسقها من آثار القدرة والحكمة الإلهية.

ثانيا: دلالة الماء على النعمة ووجوب الشكر:

يظهر الماء في القرآن الكريم بوصفه من أجلّ نعم الله تعالى على عباده، ولذلك قرن القرآن بين التذكير بالماء، وبين الدعوة إلى شكر المنعم سبحانه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ الواقعة/ 68-70، فالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ يرد الإنسان إلى أصل النعمة ومصدرها، ثم يأتي قوله: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ رابطًا بين معرفة النعمة وبين شكر صاحبها.

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله - في تفسير الآية نفسها:

"أَيْ: فَهَلَّا تَشْكُرُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِي إِنْزَالِهِ الْمَطَرَ عَلَيْكُمْ عَذْبًا زُلَالًا".[29]، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنبياء/ 30.

ثالثا: دلالة الماء على التوحيد:

يرتبط ذكر الماء في مواضع متعددة من القرآن الكريم بإثبات توحيد الله تعالى في الخلق والتدبير والرزق، إذ يستعمل القرآن إنزال الماء وإنبات النبات شاهدًا على أن الخالق المدبر واحد لا شريك له، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ النمل/ 60.

وهذه الآية من أوضح المواضع التي يظهر فيها الانتقال من النعمة الكونية إلى تقرير التوحيد؛ فقد ذكر الله تعالى خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء، وإنبات الحدائق، ثم أتبع ذلك بالاستفهام الإنكاري: ﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ﴾، وهذا ما أيده الإمام الطبري – رحمه الله بقوله –: "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِلْمُشْرِكِينَ بِهِ مِنْ قُرَيْشٍ: أَعِبَادَةُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ أَوْثَانِكُمُ الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ خَيْرٌ، أَمْ عِبَادَةُ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟، ثم قال في قوله تعالى: {أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ} يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: أَمَعْبُودٌ مَعَ اللَّهِ أَيُّهَا الْجَهَلَةُ خَلَقَ ذَلِكَ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَ بِهِ لَكُمُ الْحَدَائِقَ؟".[30] ويظهر هذا المعنى كذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ الملك/ 30. فالآية تربي في النفس معنى الافتقار إلى الله تعالى، إذ إن الماء الذي يظنه الإنسان أمرًا متاحًا دائمًا يمكن أن يذهب ويغور، ولا يستطيع أحد أن يأتي به إلا الله سبحانه.

ومن هنا: فإن ذكر الماء في هذا السياق لا يقرر مجرد حقيقة كونية، وإنما يؤدي وظيفة عقدية تتمثل في إبطال دعوى استقلال الأسباب، وإثبات افتقار الخلق جميعًا إلى الخالق المدبر.

رابعا: دلالة الماء على البعث والنشور:

من أقوى الدلالات العقدية المرتبطة بالماء في القرآن الكريم دلالته على إمكان البعث والنشور، فقد جعل القرآن الكريم إحياء الأرض بعد موتها بالماء مثالًا محسوسًا يقرب للإنسان حقيقة إحياء الموتى، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فصلت/ 39.

وقد صرح الإمام الرازي – رحمه الله - بأن المقصود من هذا المشهد هو الاستدلال على قدرة الله تعالى على إعادة الموتى، فقال عند تفسير قوله:"{إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى} يَعْنِي: أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا هُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِحْيَاءِ هَذِهِ الْأَجْسَادِ بَعْدَ مَوْتِهَا".[31]

خامسا: دلالة الماء على فناء الدنيا وعدم الاغترار بها:

من أبلغ المواضع التي وظّف فيها القرآن الكريم الماء في التربية على الزهد في الدنيا، وعدم الاغترار بزخارفها قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ الكهف/ 45.

فقد ضرب الله تعالى للحياة الدنيا مثلًا بالماء الذي ينزل من السماء، فينبت به النبات ويزدهر، ثم لا يلبث أن يصير هشيمًا تذروه الرياح، وحول هذه الآية الكريمة قال الإمام القرطبي – رحمه الله –

"قوله تعالى: (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا) أي: صف لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طرد فقواء المؤمنين مثل الحياة الدنيا، أي: شبهها، (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به) أي: بالماء. (نبات الأرض) حتى استوى. وقيل: إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء، لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر.

وقالت الحكماء: إنما شبه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعا منبتا، وإذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر". [32]

ويؤكد القرآن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ الحديد/ 20.

وللحافظ ابن كثير – رحمه الله – كلام نفيس عند تفسيره لهذه الآية الكريمة، فقال:

"يَقُولُ تَعَالَى مُوهِنًا أَمْرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمُحَقِّرًا لَهَا: {أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ} أَيْ: إِنَّمَا حَاصِلُ أَمْرِهَا عِنْدَ أَهْلِهَا هَذَا، كما قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعامِ وَالْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} آل عِمْرَانَ/ 14، ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَى مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي أَنَّهَا زَهْرَةٌ فَانِيَةٌ وَنِعْمَةٌ زَائِلَةٌ، فَقَالَ: {كَمَثَلِ غَيْثٍ} وَهُوَ الْمَطَرُ الَّذِي يَأْتِي بعد قنوط الناس، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ

مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا} الشورى/ 28، وقوله تعالى: {أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ} أَيْ: يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ نَبَاتُ ذَلِكَ الزَّرْعِ الَّذِي نَبَتَ بِالْغَيْثِ، وَكَمَا يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ذَلِكَ كَذَلِكَ تُعْجِبُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الْكُفَّارَ، فَإِنَّهُمْ أَحْرَصُ شَيْءٍ عَلَيْهَا وَأَمْيَلُ النَّاسِ إِلَيْهَا {ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً} أَيْ: يَهِيجُ ذَلِكَ الزَّرْعُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا بَعْدَ مَا كَانَ خَضِرًا نَضِرًا، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلُّهُ حُطَامًا، أَيْ: يَصِيرُ يَبِسًا مُتَحَطِّمًا، هَكَذَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا تَكُونُ أَوَّلًا شَابَّةً، ثُمَّ تكتهل، ثم تكون عجوزا شوهاء، والإنسان يكون كَذَلِكَ فِي أَوَّلِ عُمْرِهِ وَعُنْفُوَانِ شَبَابِهِ غَضًّا طَرِيًّا لَيِّنَ الْأَعْطَافِ، بَهِيَّ الْمَنْظَرِ، ثُمَّ إِنَّهُ يَشْرَعُ فِي الْكُهُولَةِ فَتَتَغَيَّرُ طِبَاعُهُ وَيَنْفَدُ بَعْضُ قُوَاهُ، ثُمَّ يَكْبَرُ فَيَصِيرُ شَيْخًا كَبِيرًا ضَعِيفَ الْقُوَى، قَلِيلَ الْحَرَكَةِ يُعْجِزُهُ الشَّيْءُ الْيَسِيرُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} الرُّومِ/ 54.

وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْمَثَلُ دَالًّا عَلَى زَوَالِ الدُّنْيَا وَانْقِضَائِهَا وَفَرَاغِهَا لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ كَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ، حَذَّرَ مِنْ أَمْرِهَا وَرَغَّبَ فِيمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ فَقَالَ: {وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ} أَيْ: وَلَيْسَ فِي الْآخِرَةِ الْآتِيَةِ الْقَرِيبَةِ إِلَّا إِمَّا هَذَا وَإِمَّا هَذَا: إِمَّا عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَإِمَّا مَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ ورضوان، وقوله تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ} أَيْ: هِيَ مَتَاعٌ فَانٍ غَارٌّ لِمَنْ رَكَنَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَغْتَرُّ بِهَا وَتُعْجِبُهُ حَتَّى يَعْتَقِدَ أَنَّهُ لَا دَارَ سِوَاهَا وَلَا مَعَادَ وَرَاءَهَا، وَهِيَ حقيرة قليلة بالنسبة إلى دار الآخرة. "(33).

خاتمة البحث:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد:

فقد تناول هذا البحث موضوع الماء في القرآن الكريم، محاولًا الانتقال من مجرد تعداد الألفاظ إلى دراسة دلالاتها وسياقاتها، وتحرير مفهوم أنواع الماء"تحريرًا علميًا، وقد ظهر من خلال الدراسة أن الماء في القرآن الكريم ليس مجرد مادة مادية ترد في سياق الشرب والري، وإنما هو عنصر مركزي في عدد من القضايا القرآنية؛ فهو من دلائل القدرة، ومظهر من مظاهر الرحمة، وسبب من أسباب الحياة، وآية على البعث، ونعمة تستوجب الشكر، وعنصر من عناصر النعيم والعذاب الأخروي.

كما تبين أن تنوع الألفاظ القرآنية المتعلقة بالماء لا ينبغي أن يُختزل في مجرد تعداد عددي، وإنما تكمن قيمته الكبرى في دقة اختيار اللفظ، ومناسبته للسياق، وتنوع الدلالة بحسب المقام.

بعد استقراء المواضع السابقة يتبين أن ذكر الماء في القرآن الكريم جاء في صور متعددة، وأن هذه الصور لا يصح جمعها كلها تحت مفهوم «النوع» بمعناه الاصطلاحي الدقيق؛ إذ منها ما هو اسم، ومنها ما هو وصف، ومنها ما هو إضافة إلى مكان، ومنها ما هو متعلق بوظيفة الماء، ومنها ما ورد في سياق تشبيهي.

وعليه فإن الأدق أن يقال:

إن القرآن الكريم عرض الماء في ثلاثة وعشرين صورة من أسمائه وأوصافه وإضافاته ودلالاته السياقية، وليس المراد أن هذه الصور تمثل ثلاثة وعشرين نوعًا ماديًا مستقلًا من المياه.

ومن هنا فإن أهم ما انتهى إليه البحث: أن التصنيف الشائع الذي يجعل للماء في القرآن ثلاثة وعشرين نوعًا يحتاج إلى تحرير؛ لأن القائمة المتداولة تجمع بين أنواع مختلفة من المصطلحات، فمنها ما هو وصف، ومنها ما هو حال، ومنها ما هو مكان، ومنها ما هو سياق أخروي، ومنها ما ليس ماءً حقيقيًا كالسراب، ومن هنا فإن الأدق علميًا أن يقال: إن حديث القرآن الكريم يتنوع بين الأسماء، والصفات، ودلالات شتى، بدل الجزم بأن جميع الألفاظ المذكورة تمثل "أنواعًا مادية مستقلة للماء".

وبذلك يجتمع للبحث أمران:

1- المحافظة على جمال الفكرة الأصلية.

2- الالتزام بالتحرير العلمي الذي يمنع التوسع في نسبة ما لم يرد في القرآن صراحة.

وبعد استقراء المواضع التي تم الحديث عليها من خلال صفحات البحث يتبين أن ذكر الماء في القرآن الكريم جاء في صور متعددة، وأن هذه الصور تتنوع بين اسم، ومنها ما هو وصف، ومنها ما هو إضافة إلى مكان، ومنها ما هو متعلق بوظيفة الماء، ومنها ما ورد في سياق تشبيهي.

ومن خلال هذه الدراسة يمكن تسجيل أهم النتائج الآتية:

1- تنوعت الألفاظ القرآنية المتعلقة بالماء، وهو تنوع يدل على ثراء البيان القرآني ودقة اختيار اللفظ.

2- وصف القرآن الماء بأوصاف متعددة، منها: الطهور، والفرات، والأجاج، والغدق، والثجاج، والدافق، وغير ذلك.

3- لا يصح منهجيًا التسوية بين جميع هذه الألفاظ واعتبارها أنواعًا مادية مستقلة للماء.

4- "ماء مدين" يتعلق بمكان ورود الماء، ولا يصح اعتباره نوعًا ماديًا مستقلًا.

5- "السراب" ليس ماءً حقيقيًا، وإنما هو شيء يتوهمه الظمآن ماءً.

6- "المعين" و"الغور" يصفان حال الماء من حيث ظهوره أو غيابه، وليس من الضروري عدهما نوعين ماديين مستقلين.

7- إن القول بوجود "ثلاثة وعشرين نوعًا من الماء" يمكن عرضه باعتباره تصنيفًا اجتهاديًا للألفاظ والتعبيرات المتعلقة بالماء، لا باعتباره حقيقة قرآنية منصوصًا عليها بهذا العدد.

8- الماء مظهر جلي من مظاهر القدرة الإلهية.

9- الماء من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان.

10- تنوع أوصاف الماء في القرآن يدل على دقة التعبير القرآني.

11- الماء وسيلة من وسائل الاستدلال على البعث.

12- المقابلة بين ماء الجنة وماء النار من أساليب البيان القرآني.

13- يتبين أن تنوع سياقات ذكر الماء في القرآن الكريم يكشف عن منظومة مترابطة من الدلالات الإيمانية، والتربوية، والعقدية، فالماء فيه دليل على قدرة الله تعالى، وأيضا دليل على وحدانيته.

هوامش البحث:

([1]) ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، 552/2، دار الكتاب العربي (بيروت، 1422هـ)، السمرقندي، بحر العلوم، 267/2، دار الفكر (بيروت، د.ت).

([2]) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 179/19، دار إحياء التراث العربي (بيروت، 1420هـ).

([3]) ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 139/4، دار الكتب العلمية (بيروت، 1413هـ)، الرازي، مفاتيح الغيب، 268/23، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 112/12، دار الكتب المصرية (القاهرة، 1384هـ)، أبو زهرة، زهرة التفاسير، 5058/10، دار الفكر العربي (القاهرة، د.ت)، كل ذلك بتصرف يسير.

([4]) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 104/6، دار الكتب العلمية (بيروت، 1419هـ)، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 224/6، دار إحياء التراث العربي (بيروت، د.ت).

([5]) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 439/26، دروزة، التفسير الحديث، 312/4، دار إحياء الكتب العربية (القاهرة، 1383هـ)، بتصرف يسير.

([6]) ينظر: الماتريدي، تأويلات أهل السنة، 348/9، دار الكتب العلمية (بيروت، 1426هـ)، الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، 471/13، دار الفكر العربي (القاهرة، د.ت).

([7]) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 441/7.

([8]) ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 132/17.

([9]) ينظر: الماوردي، النكت والعيون، 117/6، دار الكتب العلمية (بيروت، د.ت)، الرازي، مفاتيح الغيب، 672/30، القاسمي، محاسن التأويل، 334/9، دار الكتب العلمية (بيروت، د.ت).

([10]) ينظر: الماتريدي، تأويلات أهل السنة، 392/10.

([11]) ينظر: الماوردي، النكت والعيون، 184/6، ابن الجوزي، زاد المسير، 389/4، 390.

([12]) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 422/29.

([13]) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 771/30، الماتريدي، تأويلات أهل السنة، 380/10.

([14]) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 119/31.

([15]) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 79/19.

([16]) ينظر: الطبري، جامع البيان، 619/13، دار هجر (القاهرة، 1422هـ)، ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز، 365/2، الفاروق الحديثة (القاهرة، 1423هـ).

(17) ينظر: الماوردي، النكت والعيون، 302/3، ابن الجوزي، زاد المسير، 81/3.

(18) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 460/21.

(19) ينظر: بن كثير، تفسير القرآن العظيم، 289/7 ابن الجوزي، زاد المسير، 118/4.

(20) ينظر: دروزة، التفسير الحديث، 313/8.

(21) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 405/29.

(22) ينظر: البغوي، معالم التنزيل، 296/8، دار طيبة (الرياض، 1417هـ)، الرازي، مفاتيح الغيب، 752/30.

(23) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 298/8.

(24) ينظر: البغوي، معالم التنزيل، 193/3، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 409/10.

(25) ينظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، 4533/9.

(26) ينظر: السمرقندي، بحر العلوم، 515/2، البغوي، معالم التنزيل، 420/3.

(27) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 597/30.

(28) ينظر: الطبري، جامع البيان، 269/14.

(29) ينظر: بن كثير، تفسير القرآن العظيم، 29/8.

(30) ينظر: الطبري، جامع البيان، 99/18، 101.

(31) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 567/27.

(32) ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 412/10.

(33) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 56/8.